# ترحال في العمر الزمني والابداعي

خناثة بنونة

ونحن الشجر نحن النخيل. . . علينا أن نسير أماماً أماماً حين تتنمر خيانة اللون والجلد والخطو والهوية حتى لا يجرفنا تيار الانحسار إلى القبر. . . وإلا فمن الحتمي أن نغرس جذور النخيل حتى الجدع ونحن نجد أنفسنا. . . نفس هذا الشعب العربي في عصر السمسرة والنكوص في الدرجة الأولى من الصفر لأننا بذلك الانغراس في رحم الأرض الصلد نشكل موقفاً ضد عواصف الجزر التي تأخذ الآن جميع أشكال المتاجرة والسفالة والغدر والنكوص، كل ذلك بالخصوص لمن راهن ومن الأول بأدوات تعبيره، تلك وهاته، على حاضر يمضي وآخر أحسن سيأتي.

ثم أقول، بما أن الأدب حسب بعض الآراء هو من جملة الفنون التي تدفع بمستوى الحياة والشعوب، نحو الأصح وبما أنه أيضاً تعبير أو انتاج جد ذاتي، يحمل السمات الشخصية لتلك الذوات، فقد انطلق صوتي ومن الأول عنيفاً ممزقاً لكل الستر الخارجية، معانقاً الداخل والموضوعي بحدة، راهناً نفسه للوقوف في الضفة الأخرى من كل ما لا يخدم الإنسان في طرحه للإشكالات وتجاوزها، وارهاصاته بالمخاض العام للواقع وذلك في التقاطه للحركات السفلية التي تبشر بالتغيرات المستقبلية.

كما أن انفجار الوعي على الهموم الكبيرة وعلى الدمار العام في المؤسسات الرسمية والممارسات السياسية، البعيدة عن البناء الحقيقي للمعارك والشعوب، قد دفعني بعد رجة يونيو من القصة القصيرة إلى رواية «النار والاختيار» التي كانت صيحة رهيبة ضد هذا الفتك الماحق لجسدنا العربي محيطاً وخليجاً.

لهذا كان علي أن أكون أهلاً لحمل أنة ورفض ووجع وتطلع هاته الجموع نحو البدائل التي ترهن المستقبل للتغيير الحاسم، وذلك بالتعامل الفكري والابداعي مع الأرضية الواقعية لها، واستلهام بنيات التغيير من عناصره المتشابكة، وذلك بالتحاور معه في حركيته الجلدية من أجل تحطيم كل الأسس المشكلة له سابقاً.

أن ذلك التسجيل لتلك المرحلة، وأخذ موقف منها نظرياً وإبداعياً وعملياً، بكل الطروحات الخاصة والعامة، قد جعل مفهومي الاجتماعي والسياسي يتشكل، فقررت ليلى في رواية «النار والاختيار» ترك العمل النظري الصرف في مركز الدراسات، واختيار التدريس، لتستطيع أن تنتصر على الهزيمة فيها وفي النفوس والحضورات الشابة التي ستتعامل معها لتقتلع منها كل أسباب الهزائم، فتقيم حواراً مع ما لها وما عليها، من منطلق متبصر بواقعه الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي.

ورجوعاً وراء قليلاً، فإنني ومنذ أول انتاج كنت قد حاولت عبر القصة، أن أتلمس قشرة الواقع من زاوية رؤية

خصبة، وفي شكل فني متطور، سواء من ناحية المعمار أو اللغة أو المضمون، حيث لم يتسم فيه الحدث أو الفعل بالتعقيد، وإنما أيضاً بمحاولة مزج الواقع بالفكر غالباً مع الخلفية الفلسفية في الغالب، لكن أيضاً بالانتماء للأرض ومحاولة تثبيت الاقدام، لمعايشة الواقع واستنطاق القوى المظلومة فيه، من أجل كشف زيفه وكشف مضمون ووعي مصحوبين بالتزام أيضاً.

ولهذا كان الشعور بالاغتراب، هو ملجأ ما بشكل من الأشكال حيث لا قاعدة تكون بدعاً لفعل، يستطيع أن يكون مردوده خلاصاً من الانغمار في الحزن الميتافيزيقي.

إن الغرق في العالم الداخلي يعكس أيضاً بشكل ما، فداحة هول العالم الخارجي، في بناه وعلاقاته ونمطيته ورعب الأنظمة فيه، لهذا اهتممت في مرحلة ما وفي القصة بالخصوص أيضاً، بالتيارات الداخلية، حيث يتكثف الشعور وتقل الأحداث، دون الاهتمام أساساً بالتفاصيل المادية، لكن مع ذلك كان الالتزام الحر عندي، يقتضي صياغة الجوانب الشخصية مرتبطة بما هو موضوعي، مع التركيز على التداعي واللاشعور.

ومما ساعد على ذلك انصهار النماذج التي أطرحها في ناري الداخلية، حيث أتبناها، لتصبح كأنها قضايا ذاتية ترتبط بما هو موضوعي، ليتولد العمل الابداعي دون مسافة بيننا، مما يجعل الانفعالات والابحار داخل الأشياء والقضايا الفكرية ذات التوغل والعمق والرهافة لها تأثير حاسم في المعمار الفني.

بالإضافة إلى مسببات هذه الهيكلة فإن إيماني بأن الأدب يجب أن لا يعكس الواقع فحسب، بمجاراة بليدة، بقدر ما يوقظ فينا آخر جديداً، وذلك بإعادة خلقه من نفس المواد، لكن برؤى جديدة، وذلك ما دمنا لا نستطيع أن نتحرر من العالم، بل أن نعطيه عبرنا بحرارة وصدق، ليضمن أمن القارىء وسلامه، فيشعل في استكانته حريق التغيير، وبذلك يحقق مثل هذا العمل الابداعي ضرورته وموضوعيته.

إن الطبيعة جماد يكتسب وجوده من رؤيتنا وفعاليتنا، هاته الرؤية التي لا يمكن أن تكون شخصية، لهذا فكل عمل إبداعي يحمل شارات مبدعة فكراً وفنية ومواقف وبصراً وبصيرة، عبر مواقفه من كل القضايا المحلية والقومية والإنسانية، وبذلك ينعكس العالم الخارجي غالباً عندي باحثاً عن صورته الأخرى غير المشكلة في عالم الواقع، مضيفاً لجزئيات هذا الواقع وكلياته أيضاً، الخلفية الفكرية والعمق الشعري في مثل هذا التناول، رافضاً اللبوس السردي العادي، شاحناً الكلمات بطاقة من الشحنات والتأثير، من أجل تجديد العبارات والكلمات والرؤية والدلالات، ولهذا فإنني استعمل أسلوب الجمل الشعرية القصيرة، تلك الجمل الدالة على معاني يمكن بسطها في فقرة أو أكثر، ولكنها عبارة عن طاقات مفجرة للواقع والفكر وأرضيتهما، وبذلك فكأن السائر عبر السطور، يسير فوق أرض دون أمان، وإنما فوق سلسلة من تفجرات متراصة، تقتل أمن القارىء، وتدفعه للمشاركة في عملية التهديم والاتمام حتى مرحلة بناء البديل الصحي.

وهكذا يكون عدم التركيز عندي على الوصف الخارجي يتلازم عندي مع بحث شرس في نفسية الأشخاص مع مرونة التعبير الشعري الموحي بانفعال وتوهج، إلى جانب هذا يكون التداعي والمونولوج الداخلي من العناصر الهامة التي تقيم توازناً شبه متكامل بين العالمين الخارجي والداخلي الذي لا يجعل من انتاجي انعكاساً مضبوطاً لحيوات وأشخاص محدودين، وإنما هو لقطات لنماذج بشرية تعكس لقطة تستقى طبعاً من يم الواقع المتلاطم.

وفي هذا السياق، سياق التجريب المؤسس، الباحث عن بديل لشكل الجاهز، فإنني أجهد من أجل أن أتحرر من البناء المعماري التقليدي بل وكما اجتهدت مؤخراً في رواية (الغد والغضب)، حيث جمعت روايتين في واحدة كل واحدة ذات مضمون متفرد، يلتقيان ويبتعدان عبر محور متحرك سلباً وإيجاباً، تطرح إحداهما إشكالاً فكرياً فلسفياً وهو نتيجة تأثير تعتيم الواقع عند مراهقة ذكية تعايش فترة ازدهار الفلسفة الوجودية، وبذلك فهي عبر كل سلسلة الأحداث التي تعيشها ولا تشدها، تبحث عن الأرضية ذات الدلالة والمعنى التي تستطيع أن تجيب على استفهامها

الضخم حول نقطة البدء: أين هي؟

بينما تنطلق الرواية الثانية بشكل ملتزم متعمق الوعي بالواقع مخطط لترجمة ذلك الوعي في ممارسة مع مجموعة من الطلبة الذين يتطور مفهومهم للواقع ولمسؤولياتهم تجاه هذا الواقع من أجل تغييره عن طريق مشاركة القاعدة في تنويرها ودفعها إلى تبني دورها التاريخي.. إلى أن تلتقي الروايتان بموت الأب نموذج الماضي غير الفاعل والتقاء كل العناصر في حركة جماعية ذات أرضية واقعية ودلالات اجتماعية.

إن تعدد الأصوات وتعدد الأرضيات، وتعدد الطروحات، وتعدد النظرات، وتعدد زوايا الرؤية والفهم والأخذ، وتعدد الأطروحات وتعدد البطل أو حذفه أو تهميشه، وتداخل الأزمنة وتعدد الأمكنة واختلاف البناء في كل رواية أو المجاميع القصصية الخمس مع اختلاف المواضيع وتكاملها، هي ما حاولت أن أغيّر به الشكلية المتداولة في البناء الروائي أو القصصي. ففي الوقت الذي حاولت فيه هذه التعددية فإنني رغبت في تجميع أكثر ما يمكن من شرائح الواقع والاستحواذ عليها وسجنها في بحبوحة الكلمات لأعطي أكبر عدد من الشرائح الاجتماعية والابداعية والفكرية التي تعكس مرحلة تاريخية معينة.

ومع ذلك فليس نجاحي أو عدمه في هذا التجاوز المعماري الفني التقليدي هو سلسلة نهائية في حلقة التجريب (التطوير). إن عملية الخلق تعني التجاوز، تجاوز ليس المحقق فحسب بل المحلوم به أيضاً في سلسلة اللهاث الدائب الباحث عن الآتي: بناء ومضموناً، فناً واجتماعاً، وبذلك فإن المبدع يقع أحياناً في إشكال بين أناه المبدعة وبينه كشخص اجتماعي، ثم بين ما يجب أن يعكسه كشخص نابع من الواقع أي كمنتج، وبين عطاء آخر يعكس عالماً ليس عالم الكثرة: لكنه مع ذلك مطالب بإحداث التوازن الضروري بين الواقع والمتخيل، بين الموضوع والفكر، وبين الآنيّ واللانهائي.

إن من إشكالات المبدع أيضاً اقتناعه هو وغيره بمدى خدمة مسيرته للتحولات الاجتماعية، فهل من الضروري، وفق اشكالات واقعنا المتعددة، الإتيان بعالم منظم يكون مطمحاً لواقعنا أو يجب خلخلة كل البنى والمؤسسات وتفجير كل قائم شكلاً ومحتوى من أجل نسف كل توازن مغشوش؟

إن رصد التحولات وحمولات المستقبل وتاريخ الابادة المشرعة في وجه مجتمعاتنا يضع المبدع في الواجهة ليكسر صلابة القيود عن خطو الجموع، وبذلك فإن دوره ريادي، أي يجب ألا يتعقب مخاض الواقع وجدليته فحسب بل أن يساهم أساساً في صنعهما.

كما أن في داخل المبدع تتصارع السموات والأراضي، لتجعله يتصل وينفصل بالمجدي والعدم في آن، نتيجة احتياره الأرعن أمام جبروت الكون وأسرار الوجود اللامتناهي التي ترميه في الوحدة واليتم والسؤال الأعم، باحثاً عن الرضى واليقين...

وأخيراً يبقى استفهام: هل الكتابة في مثل واقعنا العربي ترف أم ضرورة؟ إذ رغم أن علاقتي بالكتابة أساساً وبدءاً، كانت هي تبرير الوجود على الصعيد الذاتي والمشاركة في معركة التغيير على الصعيد الموضوعي، إلا أن الأمية المتسلطة على الساحة العربية من جهة، وانسحاقنا بالهزائم المتعددة أمام فلسطين الصغيرة والكبيرة (الوطن العربي كله) فلسطين الذات وفلسطين الأعماق أيضاً، بكل ما تشكله من أبطال خيانتها قومياً ودولياً، فإنني لا أقتنع بالتبرير الذي انطلقت به أولاً في أول عناقٍ حميمي لي بالكلمة، بل في وجوب البحث عن مشروع جديد، يتعدى نطاق الفرد إلى مسؤولية الجموع، لصياغته نظرياً ولخلق أدوات التعامل معه عملياً حيث ترتبط الكلمة بالفعل ربطاً جدلياً يبشر بالآتي: فناً وعملاً(*).

**المغرب**

(*) شهادة قدمت إلى الملتقى العربي الأول للإبداع العربي في أكادير.